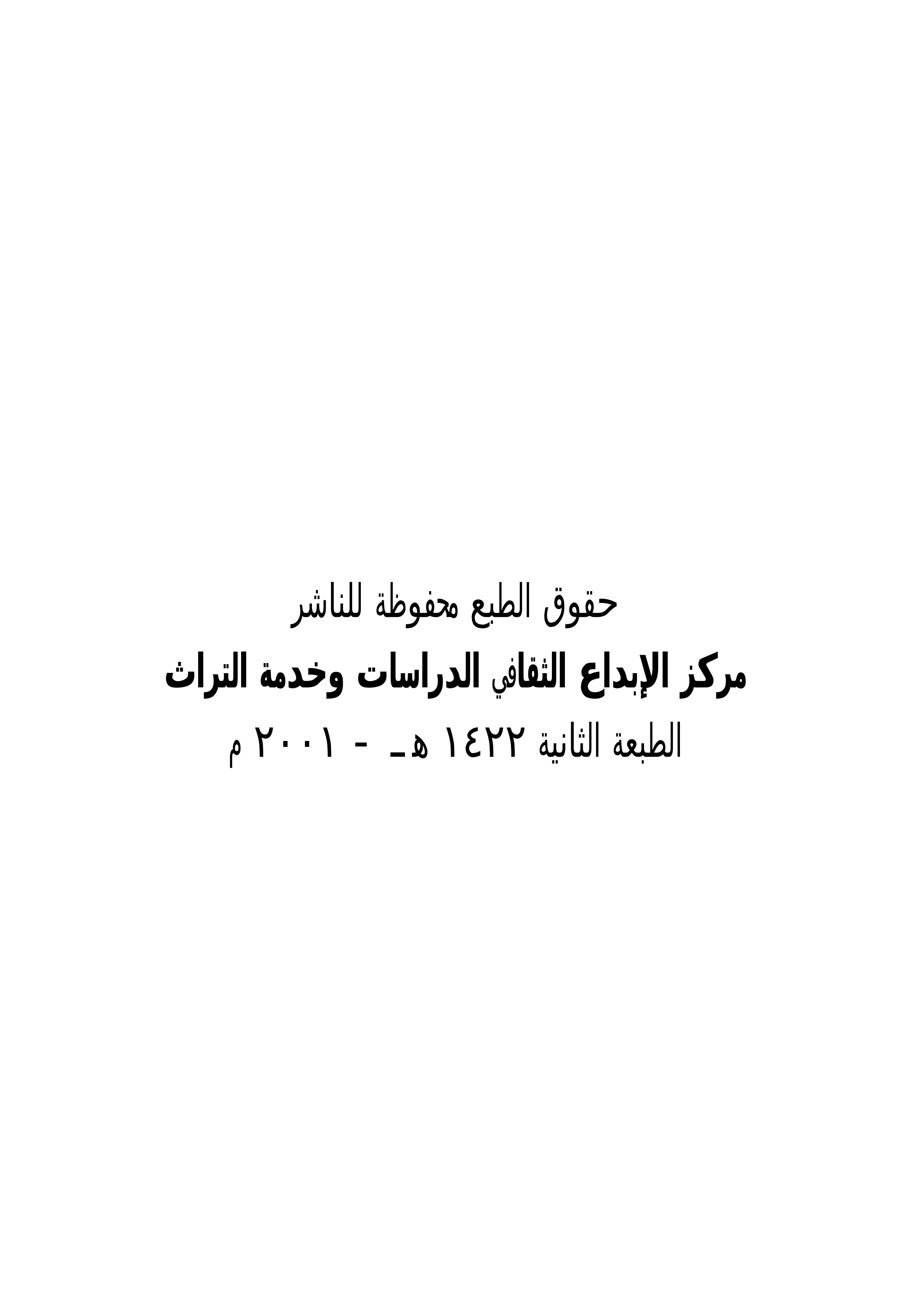
رجال المنابر والمقامات

أشد الناس حاجة للأخلاق

بقلم
خادم السلف
أبي بكر العدني ابن علي بن أبي بكر المشهور

رجال المنابر والمقامات

أشد الناس حاجة للأخلاق



مركز الإبداع الثقافي **الدراسات وخدمة التراث**

الطبعة الثانية ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م


بسم الله الرحمن الرحيم

المطلع القرآني..

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن
يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن
شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ
مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾

[النساء:١١٣]

لِسانُ الحَال..

﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ
أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ
ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾

[النساء:١١٤]

المقدمة

الحَمد للّه، أنعم على هذه الأُمة بنعم لا تحصى، وأعظَمها وأجلها نعمة الإسلام والإيمان بعد نعمة الإيجاد، وكفى ذه النعم فضلاً ومِنحة.والصلاة والسلام على المبعوث في آخر الزمان، برسالة السلام والأخلاق والإيمان، سيدنا المحقوق بالسيادة في الدنيا والآخِرة، وقد اختاره اللّه لها بجدارة، محمد بن عبد اللّه كَريم الأخلاق، المتـمم لها في الحياة بقَوله: « إنما بعثت لأُتـمم مكَارِم الأَخلاق » تأييداً وتحقيقاً للـمنحةِ العِلية التي وصفَه اللّه ا في الآيات القُرآنية: {وإنك لعلى خلُقٍ عظيم}، وعلَى آله الطيبين الطاهِرين، وعلَى صحابتِهِ الغر الميامِين، وعلَى التابعين لهُم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

وبعد فيقول العبد الحقير الأقل أبوبكر بن عِلي المشهور:

إنّ الأَخلاق كلـمة جامعة للـمكارم، حاوِية لخِصالِها، والـمسلـمون في هذا الزمان هم المحْقُوقُون بالـمعاني السامية، علـماً وعملاً، أخذاً وتطبيقاً، خصوصاً بعد أنْ دهمتهم دواهِي الأعداء، وتلقفت عقولهم إسفَافَات البعداء، وصارت الحياة المعاصرة معصرة القيم وطاحونة الأخلاق، بلْ ومِن تحت أنقَاض الضحايا تفوح روائح المعاملات والارتباطات السلُوكية في كافة مراتب الحياة.

وزمننا هذا زمن موعود به في ترديه، ونكوص أهِليه عن جادة الحق المثلى، خصوصا عند بروز العلامات، وظهور الآيات، ولكن الواجب في حد ذاته واجب يثاب فاعله، ويؤثـم تاركه، ولاعذر لـمن علـم أنْ يترك البلاغ

لقلة سامعيه أو ندرتهم، أو حتى انعدامهم، فإن الإسلام علّم أتباعه أنْ يبلغوا ولو آية، ليس لغرض أثر الإبلاغ وإنما رجاء الثّواب به، ولإقامة الحُجة والبراءة مِن الكتمان. وهذا هو ما جعل أقلام العلماء الثابتين على الحق اللاّهجين به على ألسنتهم، تترجم للناس مكنون العلوم الواجبة، وتصبر على التبليغ اقتداء بالمبلغ الأول، فعسى أنْ تنالَ بذلك شرف صاحِب البلاغ.

والعلماء في حقيقة الأمر هم أهل هذا الفن، وعليهم مسؤولية نشره، وتعريف الناس عليه، إلاّ أنّ تفاوت المزايا وتتابع الرزايا، جعل العِلم بضاعة، يحملها البر والفَاجر، ويعرِضها في سوق العرض والطّلب كُل تاجِر.

ولم تعد تجارة الآخرةَ كما كانت بيد العدول، وتحت هيمنة المربين الفُحول، وإنما هي صنعة يتقنها كلّ ذي لسان وعَرض، ومادة تقذفها الألسن في كل آلة إعلام وعرض. واختلط الحَابلُ بالنابل، وادعى الانتساب إليها كل غر وقَدِمٍ جاهِل. وحلت لكسبها وجني ثمراتِها جراءةُ المتنطعين مكان الخائفين الوجِلين، وسبق إلى امتلاك وسائلها وأسبابها الرويبضات بدلاً عن الخُشع الركع المخبتين.

وجاء زمانٌ يخرج الرؤساءَ في العِلم ويكْبح العلماءَ، تحقيقاٍ لقول الصادق المصدوق: « إن اللّه تعالى لاَ يقْبض العِلم انتزاعاً ينتزعه مِن العِباد، وإنما يقْبضه بقَبض العلماء، حتى إذَا لم يبقِ عالماً اتخذَ الناس

رؤساءَ جهالاً، فَسئِلُوا فَأفْتوا بغير عِلْم، فَضلوا وأضلوا » [1] وقد أثمرت الضلالات المشار إليها ثمراتٍ واسعة، وصارت في حياة المسلمين مؤسساتٍ وتياراتٍ شاسعة.

والعلماء المعنيون بالأمر، بين السجن والصمت والقبر، ورؤساءُ الفَتوى والبلوى قد استحلوا الجلوس على المراتب والمنابِر، وراجت بضاعةُ مكرِهم ورهجهم عند الوارِد والصادِر، وقد استنوق العدو لهم ولخدمام كافّة الفئات الاجتماعية، بدسائس العلمانِية والحضارة المادِية.

وبالسياسة والخَساسة بنى المنتفِعون هذا الإسفَاف، صرحاً من الجهل والانحراف، نحتوا له من مسميات الإسلام وشعارات الملّة عناوين وسِمات وقسمات، وأشادوا له ولتلامذته كُليات ومدارس ومؤسساتٍ وهيئَات، اجتمع تحت ظِلها أبناءُ الأثْباتِ وأولاَد الهَيشات. والناعِق ينفُخ في صور الأفِئدة والعقول مركّباتِ الثّقَافة وخليطَ الوعي، وقد أمِن غَائِلة الأشباه والأمثَال، وتجرد كالبقية المحيطة به عن الخوف من الملِك المتعال.. فكان من الأمر ما نحن فيه، ومِن البلاَء والمحنة ما نعانِيه..

---

(١) رواه أنس، متفق عليه.

وقد أهمني بلاءُ الأمة وحالُها، واشتد الهَم لـما سمعت أنّ مِن هؤلاءِ الرويبضات من ينزو على المنابِر -علامة مِن علامات الساعة- لاَ يرقُب في مؤمِنٍ إلا ولاَ ذِمة، مبتوراً عن تاريخ أُمته، مصهوراً في حميا فِتنتِهِ، شامِخاً بأنفِهِ وإستِه، لايشرب من العِلـم إلاّ كأس شِيوخِ المرحلة، ولاَ يطَبق من الأخلاق إلاّ المر والحَنظَلة.

يستشعِر الاستشهاد في سبيلِ اللّه وهو يخاطِب عوام المسلـمين عن مبدئِهِ ورؤيتِه، ويعتقد الاضطِهاد لَه إذَا قيل لَه: اتقِ اللّه في المؤمنين مِن أهلِه وطِينتِه، منطَلِقاً في الواقع الممتحن كالشرارة في مخازِن الوقُود، وجاهِلاً كُل الجَهلِ عن حقيقة الوعي المصنع الّذي دفعه إليه المنتفِعون بهذا الحَماس المحدود، يحمل أصابع المتفَجرات وقد كُتبت عليها أسماءُ المتهمين، فكل من لاَ يواليهِ ويوالي مبدأه الناري فَليس مِن الناجين؛ ولو كان عالـماً مخبِتاً صالِحاً، إذْ لاَ عبرة عند مِثْلِ هؤلاءِ بصلاحِ أحد ما لـم يكن من لاَئِحة الأتباع والأشياع، ورموز الانتفاع.

فالصالِح والعالـم في قاموس الأحداث: إما صوفيّ مبتدِع ضال، أو متخاذِلٌ نفْعِي بطّال، أو ذَيلٌ عِلـماني محتال.

والأحداثُ السفَهاء هم المعنِيون بالنجاةِ في الحَياتين، وأهلُ السعادة في الدارين. وهم أيضاً أهلُ السنةِ والجَماعة والفِرقَةُ الناجية، فسبحان من قَسم العقول، ووهب جِيلَ الفتنة وافِر الاندفاعِ والفُضول...

والأحداثُ في نظرِ الإسلاَم معذُورونَ مِن جِهة، ومسؤولونَ من جهةٍ أُخرى، أما عذرهم فلأنّ غَالِبهم لاَ يبحثُ حقاً عن غير الإسلام فهو مشتاق إليه وراغب فيه وصادق الوِجهةِ في أخذِهِ والـموتِ في سبيلِهِ، ولـم يجِد في الواقِع المرير، من يسير به إلى الطّريق المنير؛ بل هو لـم يبصِر النور أصلاً إلاّ من هذه الفَتحة التي ينطق بلسانِها... أليس بمعذُور!؟.. قُلْنا : بلَى...

أما مسؤوليته، فلأن أُذنه قد سمِعت البلاَغَ مِن الجَانِب الآخر، وعرف من خِلاَلِ اطلاَعِه وخِبرتِهِ، وسيرِهِ بين الناسِ، من يخالفُه المنهج الفَرعِي، ويقُولُ في العقَائد والـمذْهب بغير ما وعاه مِن نافِذَة العطَاءِ الواحد، فَمسؤوليته هنا، أنْ لاَ ينساق خلف المصلَحة، ويستفزه الطّبع البشري القاصِر، بل عليه أنْ يرمِي بحبلِ الرغْبةِ في الحَق إلى حيثُ يسمع التبليغَ بِشقّيهِ، ويحاوِر محاورةَ المرءِ المتجردِ عن آثار الهَوى، حتى يفهم الشكلَ من المحتوى، ومِن ثـم يحق لَه بعد ذَلك الفَهم السكوت أو الاستـمرار في العوا..

والأزمة الأخلاقية الحَقيقَية اليوم إنما هي على المنابِر، لأن رِجالَ المنابِرِ هم الضحِيةُ الأُولَى في عصرِ الزيفِ والتزيـيف، ومِن أجلِ أنْ يعلـموا مِحنتهم ومِحنةَ أُمتِهم، عليهم وعلينا أنْ نرجِع للـمعادِل الأساسِي في الدعوةِ الإسلامية.. إنها الأخلاَق..

فبالأخلاق تنضبط الدوافع والغرائز، وبالأخلاق تتهذب الألسِنةُ والقلوب، وبالأخلاق يعرف المرءُ قِيمةَ غَيرهِ، وبالأخلاق يعرِف حجم نفسِهِ.. والأخلاق تركَةُ نبِينا عليه الصلاَةُ والسلاَم، وهِي مِيراثُ الجَميع...

وأهل العِلم ودعاة المنابر هم المسؤولون أمام اللّه عن هذا الميراث. والأخلاق لاَ توهب وهباً، ولو أن للغرائز فيها أثراً، وليست كُلها مكْتسبةً ولو أنْ للمجالَسةِ والمجانسةِ تأثيراً.. وإنما هي تهذِيب للنوازِع الموهوبة، وارتِياض بِمصاحبةِ أهلِ الصفَاتِ المحْبوبة، فَلو أخذ المرءُ كُتب الأخلاق وقَرأها وفهمها لما صنعت في قَلْبِه مِثقالَ ذَرةٍ من أخلاق، إنْ لم يكن قلبه وجوارِحه قد ارتاضت على شيءٍ من هذا السلوكِ منذُ التنشِئَة، فَيحِن إلى كَمالِها واستِكمالِها، والإسلام ذاته يشهد للأخلاقِ البيئية إنْ امتزجت بالأخلاق الإسلامية المكتسبة، فيقُول صلى اللّه عليه وآله وسلم:

« الناس معادِنُ، خِيارهم فيْ الجَاهِليةِ خِيارهم فيْ الإسلاَمِ إذَا فَقهوا »

رواه البخاري، والفِقْه هنا هو المقصود من موضوعنا، كَما كان هو المقْصود عشِيةَ قَولِهِ صلى اللّه عليهِ وآلِهِ وسلم للحدِيث.

فَمن فَقُه الأمر المطْلوب من دعوةِ الإسلامِ فَقه أُسلُوب البلاَغ والدعوة، والذين يتشابهون مع معنى المقُولَةِ النبويةِ من حيث كونهم عاشوا مرحلةَ الاضطرابِ الفِكْري والاجتماعِي على عهدِ ما قَبل الصحوةِ ثم صحوا واعتنقُوا مبادِئ الصحوةِ الإسلامية، عليهم أنْ يشفَعوها بالفِقْه المعِني فيْ الحَديث، لِيميزوا بين الطَيبِ والخَبيث.. وليفْهموا.. وهم أحق بالفَهمِ من غيرِهِم.

إن للإسلامِ ضوابطَ، وللفِتنة علامات، وإذَا لم تكُنِ الحَقائق والأخلاق الإسلاميةُ هي وسِيلةُ الإقناع، فَلن يكونَ الهَذَيانُ والقُوةُ والاندفَاع والقَلَق المدمر سبب القَبضِ على زمامِ المسِيرةِ الإسلاميةِ الواعية..

وعدونا هو عدونا أياً كَان لباسه ولسانه، وصديق الإسلامِ هو المسلم أياً كان لباسه ولسانه، ومن اختلف معِي في الأُسلُوب والوسِيلَة، فَلست في الأصل مختِلفاً معه في القَصدِ والغاية، إلا إذَا كُنت «أنانِيا» .

وهذه أزمةُ أخلاق.!

والأنانِي يرسم الشر بأقْلامِ الخَير، ويزرع الديناميت حيثُ يجِب أنْ ينبت الزرع.

والمرحلة قد أودت بِنا جميعاً إلى حالةِ مرضِية، وتتابع الأزمات قد وسع دائرةَ الفِتنة، وجراءَةُ المتريثين خلطَتِ الأوراق، وغُبار الانفَجاراتِ عتم الرؤية، وخلطَ بين المنتفِعين والمندفِعين. فَتعالَوا بِنا إلى ساحةِ الأخلاقِ النبوية نجسد حقيقَةَ السلام، وندمغُ دِعاياتِ الإفْكِ في المحَافِل الكَاذِبة، ونقُولُ للكَافِر وللمسلم العاثِر: إن في الإسلامِ الحَق، ولا سلام إلاّ بأخلاق، ولاَ أخلاق إلاّ بعقيدة، ولاَ عقيدةَ إلاّ بثمراتٍ نؤكد حقيقَتها في اللسان والجَنان والواقِع..

« المسلم من سلم المسلمونَ مِن لِسانِه ويدِه..» .

« المسلم أخو المسلم..» .

« المؤمن للمؤمن كَالبنيان - أو كَالبنان - يشد بعضه بعضا..» .

منشأ فقدان الأخلا ق

كانَ شوقي موفّقاً في قوله:

فإنما الأمم الأخلاق ما بقيت

فإنْ هم ذَهبت أخلاقُهم ذَهبوا

ومنشأ زوال الأمم فقدانُ أخلاقِها، وأعظَم أمةٍ بعثت بمكارمِ الأخلاقِ هي أمةُ الإسلامِ، ونبيها هو المتمم للدعوةِ الإيمانيةِ الممتزجةِ بالأخلاق.

والإتمام تكملةُ الشيءِ واستقصاءُ كافّةِ نواقصه حتى يبدو مكتملاً، وقد أتم اللّه النعمةَ لهذه الأمةِ ذا الإتمامِ، لتمتزج بين الأخلاق الشرعيةِ والطبعية فيعتدل التوجه وتستقيم قناةُ السلوكِ.

فإذا كان المرءُ يحب الكرم جبلةً وطبعاً ويتخذُ منه شرفاً وسؤدداً وذِكراً حسناً، فإنه في الإسلامِ يهذب ليصير طلباً لرضاءِ اللّه، ونيلاً للدرجاتِ العلى يوم اللقاء بين يدي مولاه، وإذا كان المرءُ ذا حمية وغيرةٍ طبعية لا يرضى الضيم ويأباه، فإنه في الإسلام يجعلُ الغيرةَ عزةً في ذاتِ اللّه ورسوله، وحميةً مقْرونةً بالأخلاق العاليةِ الضابطة جماح النفْس أنْ تشذ أو تتجاوز الحدود، ويحضرني هنا مثالٌ أخلاقي من أمثلةِ التاريخ الإسلامي:

فقد روي أن الإمام علي بن أبي طالبٍ كرم اللّه وجهه كانَ في معركةٍ من المعاركِ الإسلاميةِ وقد رفع سيفه على أحدِ خصومهِ ،فاستشعر الرجلُ الموت

فَبصق في وجهِ الإمامِ علِي، فَثَارت حفِيظَةُ الإمامِ لِفعِلِه لكنه أحجم عن قَتِلِه وتركَه، فَلَـما سئِلَ عن سببِ ذَلك، قَال: إن عزمِي على قتِلِه كانَ لأجلِ اللّه، لَكن عندما بصق علَي ثَارت نفْسِي فَخشِيت أنْ أقْتلَه انتقَاماً لنفْسِي فَتركْته لذَلك.. وهنا تتـميز الصورةُ الأخلاقيةُ في أسمى صورِها الإسلامية.

ويقَابِلُها في الوجهِ الآخرِ صورةُ الطّبعِ الإنسانِي المنبعِثِ عند الاستفزازِ، وقد خلاَ قَلب صاحِبِه عن معانِي الأخلاَقِ الساميِةِ: فَقَد روِي أنْ طَلْحةَ بن عبيداللّه لـما بارزه علي رضِي اللّه عنهما جميعا ذَكره علي بقَول رسول اللّه صلى اللّه عليِه وآلِه وسلـم: « ستقَاتِلُه وأنت لَه ظَالـم » فَوعاها طَلْحةُ ولَوى حِصانه راجِعاً من حيثُ أتى، فكَان هذا الموقِف مِن طَلحةَ استِفْزازاً لِطَبعِ مروانَ بنِ الحَكمِ، وإثَارةً لِحمقِه، ومكنونِ صدرِه، فَما كانَ مِنه إلا أنْ سدد سهمه إلى طَلْحةَ فَقَتلَه..

والـمنظُور السياسِي يقْتضِي من مروانَ أنْ يفعلَ هذا حتى لاَ يصاب جيشه باضطرابٍ، لَكِن الأخلاق الإسلاميةُ لاَ توافِق هذا المنظُور ولاَ ترتضِيه.. وكَم في التارِيخ الإسلاَمي مِن أمثِلةٍ لِكِلاَ المعادِلين، إذْ إنه لـما تفوقَت دعوةُ المصالح وتغلبت سِياسةُ العقلِ وسِيادةُ الذاتِ البشريةِ نزع كَثِير من المسلـمين إلى خلْعِ لُبسِ الأخلاقِ وطَرحِهِ في كَثِيرٍ من المواقِفِ، والعودِ إليه وتقمصِهِ في مواقِف أُخرى، وفَصلُوا ذا الأمرِ بين الدعوةِ الإسلاميةِ وجوهرِها، وتـمثلت لهُم مفاهِيم الطبيعةِ المقْرونةُ بالقُوةِ أو السلطَان.!

إنها مواقِف أخلاقٍ كان لابد مِنها لانتِصارِ الحَق الذي يزعمونه، فَنحتوا
ذه المزاعِمِ تـ مثالاً من الأخلاق لا روح فيه، وصار لهُم ولأشباهِهم
وأمثَالِهم رمز البطُولاتِ والأمجادِ والـ مواقِف.

الأخلاق.. مبدأ إسلامي
لا دافع غريزي ذاتي

لَقَد أشرنا في تناولنا الآنِفِ إلى أن الأخلاق منها ما هو طَبِعي ومِنها ما هو شرعِي، والأخلاق الطبِعية مِقياسها النفْس، وكابِحها العقلُ، وثمرتها حسن سِياسةِ الذاتِ والغير، وامتلاك لِزمامِ المواقِف.

ولا حاكِم للنفسِ البشرية في هذا المحْورِ غَير الاختباراتِ الذاتية، وهذِهِ أخلاق قَاصِرةُ الأثَرِ ومنعدِمةُ الثمراتِ، ويظهر قُصورها في حالاتِ الاستفْزازِ والانفِعال، وتفقَد ثمراتها عِند نصبِ موازِينِ الأعمالِ في عالم أبدِي آخر..

أما الأخلاق الشرعيةُ فهي قَاعِدةُ الإنسانيةِ المؤمِنةِ باللّه واليومِ الآخِرِ، وهي التبِعةُ الثقِيلَةُ والأمانةُ الكُبرى القَادِرةُ على صنعِ الإنسانِ المثَالِي، حيث تنشأُ كافّةُ مفَاهِيمِه الأخلاقيةِ مِن مستوى التوجِيهاتِ الإلَهية لا من حيث نوازعه الطّبِعية، فَلوكَان المرءُ هادِئ الطبعِ بذاتِهِ، حسن الأخلاق بفطرتِهِ، لا يستفِزه الضد ولا ينفعلُ بالأحداث، ولا يميلُ إلى الظُلم ولا يشترك في أسبابِهِ، ولكِنه لا يدين بالإسلامِ ولا يؤمن به، فما هو في حقيقةِ حالِهِ إلا كائِن غير عاقِلٍ، والكائنات غَير العاقلِةِ يوجد منها أصناف تميلُ إلى الهُدوءِ والمسالمةِ بِطبِعها، فأخلاق هذا الإنسانِ آليةٌ لا ثمرةَ فيها ولا ثواب عليها ولا تدل على كَينونتِه المسؤولةِ كإنسان، ولذَلك جعل الإسلام مصير

هذه العقول الآليةِ « حر السعِير » ، قَال تعالى واصفاً حالَ الأخلاقِ الإنسانية الطبِعية غيرِ العاقلةِ مدلولَ الأخلاقِ الإسلامية: {وقَالُوا لَو كُنا نسمع أَو نعقِلُ ما كُنا في أَصحابِ السعير . فاعترفُوا ِبذَنبِهم فَسحقاً لأَصحابِ السعِير} [تبارك:١٠ ـ ١١] .

إذنْ فالكافر بالإسلام كائن غير عاقِل، من حيث نظرةُ الأخلاقِ الإسلاميةِ وكذلك المنافق المصِر على ِنفاقِهِ المستمر له، لاَ يختلف عن كينونةِ عقلِ الكافِرِ الجَاحِدِ، ولو اختلفَت صورةُ الجُحودِ في الحَياةِ فصورةُ المصيرِ الواحدِ واضحةٌ كُل الوضوحِ، قَال تعالى: {وعد اللّه المنافِقِين والمنافِقَات والكُفار نار جهنم خالدِين ِفيها هِي حسبهم ولعنهم اللّه ولَهم عذَاب مقِيم} [التوبة:٦٨].

والجُحود لَدى الكَافرِ بين في صورٍ شتى، وبه انعدمت عنه الأخلاق، والمنافق كذلك تميز جحوده في صورٍ شتى انعدم انتماؤه لمنهجِ الأخلاق، ومنهج الأخلاقِ في الإسلامِ أساسه التقْوى، والتقوى اتباع أوامرِ واجتناب مناهٍ، والمتقي هو العبد المهتدِي، والهدايةُ لاَ تكونُ إلا للموفقين المخلِصين.

وأما المتجرد عن الهدايةِ بخلودِهِ إلى الأرضِ واتباعِهِ هواه، فلا يعرف الهدايةَ ولاَ يقف عند أسبابِها لمخالفَتِهِ منهج الأخلاقِ ولَو صلى وصام؛ {واللّه لا يهدي القوم الكافرين} [التوبة:٣٧] ،{واللّه لاَ يهدِي القَوم الفَاسِقِين} [التوبة:٢٤]، {واللّه لاَ يهدِي القَوم الظالمين} [التوبة :١٩].

فالكفر بكافة مراتبه والفسق والظلم صفات مخالفة لمنهج الأخلاق، والكافر والفاسق والظالم أياً كان وضعه الاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعرقي كائن غير عاقل، ولو كان له عقلٌ مميز لارتبط بالأخلاق.

وجوارحه أدوات آلية تؤدي وظائف مجردة، قال تعالى: {أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله} [الجاثية: ٢٣].

وكما فرقت الأخلاق بين الوجهات والتصرفات فإنها تفرق أيضاً بين وظائف الجوارح، وتفرق بين تسميات ومسميات الوظائف ذاتها، قال تعالى: {ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون}. [الأعراف: ١٧٩] .

ورموز الحياة وشخوصها وظواهرها ومظاهرها متشابهة في حياة الإنسانية كلها، وكذلك رغبات الإنسان وجواذب ذاتياته لا تختلف تركيباً وصنعاً وأثرا وتأثيراً وطموحاً عن شبهه ومثله؛ ولكن الاختلاف في المنهج الأخلاقي.

وبمقدار تـمسك الإنسان بمنهجه السامي تعتدل علاقته بالحياة وظواهرها، وتعتدل أيضاً علاقته بدوافعه ونوازعه ورغباته وطُموحاته، فتصير كلّها تابعة لا متبوعة، وهذا يميز العالـم والعامِل الحَريص على العمل من العالـم والعاقِل المسوف المأسور في قيود أعدائه: النفْس، والهـَوى، والشيطَان، والدنيا .

والقُرآن يضع الأنمُوذُج السلبي لهذا النوع من العلـماء: {واتلُ عليهم نبأ الذِي آتيناه آياتِنا فَانسلخ مِنها فَأتبعه الشيطَانُ فَكَانَ مِن الغاَوين . ولَو شِئْنا لَرفَعناه ِبها ولَكِنه أخلَد إلَى الأَرضِ واتبع هواه، فَمثَلُه كَمثَل الكَلْبِ إنْ تحمِلْ علَيهِ يلْهث أَو تتركْه يلْهث ذَلِك مثَلُ القَومِ الذِين كَذبوا بآياتِنا فَاقْصص القَصص لَعلهم يتفَكرون . ساءَ مثَلاً القَوم الذِين كَذبوا بآياتِنا وأنفُسهم كَانوا يظْلـمون} [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦].

فالأخلاق الحَسنة في حقيقتها سلُوك مكتسب من منهج سليم، يؤديها صاحبها مرتاضاً ا لينال غايةً يثاب عليها، ويخشى عقاباً عند إهمالها أو تجاوزها، مع قناعات واعية أنْ لا سعادة في الدارين إلا بالأخلاق ومقَوماتِها وأن فيها رِضاء اللّه وصدق عبوديته، مهما خالفه المثْل والشبه من جِنسِه في المفهومية أو التطبيق.

فلا مندوحة لـمخالفة منهج الأخلاق حتى لو أن الناس قد كَفَروا باللّه، أو ظَلـموا أنفُسهم، أو نهجوا منهج الفِسق في الحياة، فالكثرة من البشر ليس قُدوة لذِي أخلاق، والظاهرة العامة في سلوك الغالبية الاجتـماعية

ليست حجة على الأخلاق، قال تعالى مبيناً رضاه عن القلة المتمسكة بالأخلاق، وذاماً الكثْرة المخالفَة لمنهجِهِ الخُلُقي: {وإنْ تطِع أكْثَر من في الأرضِ يضِلوك عن سبِيل اللّه..} [الأنعام:١١٦]، وقالَ تعالى: {ولا تجِد أكْثَرهم شاكِرين} [الأعراف:١٧].

وقد يكون المتمسك بالمنهج الأخلاقي فَرداً واحداً، أو بيتاً من بيوت الصالحين، في أُمةٍ فَاجرة خاسِرة. {فَما وجدنا فِيها غَير بيتٍ من المسلمين} [الذاريات:٣٦]، {إن إبراهِيم كَانَ أُمةً قانِتاً للّه حنيفاً ولم يك مِن المشرِكين . شاكِراً لأنعمِهِ اجتباه وهداه إلى صِراطٍ مستقِيم} [النحل:١٢٠-١٢١].

أثر الأخلاق الإسلامية
في حياة المسلم الملتزم

الأخلاق منهج إلهي، يرفع الله به النفس البشرية من حضيض البهيمية الغريزية غير العاقلة، وغير المسؤولة، إلى الإنسانية المكرمة العاقلة المسؤولة.

والإنسانية اسم للنوع الإنساني، ولا معنى له في الأخلاق الإسلامية إلاّ من مفهوم : « الاستجابة لحَمل الأمانة » .

والعقل قُوة موهوبة تساعد المرء على تقدير موازين العلاقات الإيجابية أو السلبية بين متناقضين يترجح به أحدهما، والفاعل في الترجيح عوامل داخلية وخارجية.

والمسؤولية: هي الأمانات الّتي كلّف الله بها الكائن الإنساني منذ وصول البلاغ إليه، قال تعالى: {إنا عرضنا الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ والجِبالِ فأبين أنْ يحمِلْنها وأشفَقْن مِنها وحملَها الإِنسانُ إنه كانَ ظلُوماً جهولا} [الأحزاب: ٧٢].

والحياة في أساسها ظُلمة، ونورها الأخلاق الإسلامية، قال تعالى: {أومن كانَ ميتاً فأحييناه وجعلْنا له نوراً يمشِي بِهِ فيْ الناسِ كمن مثَلُه فيْ الظلماتِ ليس بِخارِجٍ مِنها} [الأنعام: ١٢٢] .

فالحياة ظُلمة بذاتها، وإذا ما انعدم المنهج الأخلاقي في النفس المسؤولة صارت الظلمة ظُلمات، ولا خلاص منها إلا بحياة الإِيمان، فالظلمة

موت والحياة حركة، والـمتحركون في الظلام أموات لاَ ضمائر لهم، ولاَ تفاؤل ولاَ نجاة من مصير مظلـم محتـم، والغارقُون في الظلـمة والظلاَم يكرهون النور ويسدون منافذَه..{ومن لـم يجعل اللّه لَه نوراً فَما لَه مِن نور} [النور:٤٠]

فالزعِيق والشهيق والتوتر والانفعال الكَائن في رموز الحُكم والسياسة والنهيق والتصفيق والحماس المنبعث من الشعوب، كُلّه تعبير عن ظُلـمة الارتكَاس، وضلاَلاَتِ الأنِتكَاس، والتنكُب عن الأخلاق الإسلامية، والاستعاضة عنها بظُلـمة الكفر والنفاق وتخبطات الظّالـمين والفاسقين.. {والذِين كَفَروا أعمالُهم كَسرابٍ بِقيعة يحسبه الظمآنُ ماءً حتى إِذَا جاءَه لـم يجِده شيئاً ووجد اللّه عِنده فَوفاه حِسابه واللّه سرِيع الحِسابِ . أو كَظُلـماتٍ فيْ بحرٍ لُجي يغشاه موج مِن فَوقِهِ موج مِن فَوقِهِ سحاب ظُلـمات بعضها فَوق بعضٍ إذَا أَخرج يده لـم يكَد يراها ومن لـم يجعلِ اللّه لَه نوراً فَمالَه مِن نـُـورٍ} [النور: ٣٩ ـ ٤٠].

الـمسلـم الملتزم بنور الأخلاق الإسلامية موصوف في المنهج القرآني والسنة النبوية بوصوف تفَردِهِ عن ظُلـمةِ الارتكَاس والانتِكَاس، حيثـما كان من الحياة، وأينما كان من الـمجتـمع الإنساني الكبير، فلا مجال لخفاء نوره ولاَ مهرب من ظهور أثره، لأن استـمداده وزيت مِشكَاته من داخل منهجه الأخلاقي، لاَ من توليفَات الظالـمين.. { يوقَد مِن شجرةٍ مباركَةٍ

زيتونةٍ لاَ شرقيةٍ ولاَ غَربيةٍ يكَاد زيتها يضِيءُ ولَو لـم تـمسسه نار . نور على نورٍ يهدِي اللّه لنورِه من يشاء } [النور: ٣٥].

والغارِقُون في الظلـمة شأ م السخرية من النور وأهـْلِه، بل يستعجبون مما يسمعون، ويظنون أن منهج الأخلاق النير عاجز عن قيادة الْأمة، ويستدلون بالفرد الملتزم للإسلام، المتحرج بصدِقه وإخلاصه وخوفه من اللّه أنْ يشق طريق الحياة مع أهل الظلـمة...

ومتى كانَ النور والظلام يجتـمعان ؟!. فالنور يكتسِح الظلـمة ويبددها عند سريان حياة الأخلاق في الناس، والأخلاق لا تأتي صدفَة ولاَ تـمارس بِقَرارٍ، ولاَ تتوزع بالِبطَاقَات، ولاَ تحقق أيضاً في الانتـماءات والتيارات والتجمعات..

كُل هذَا وإنْ كان الناس يرونه في نظرهم بوادِر خير فهو لاَ يعدو في منهج الأخلاق الإسلامية زيادة في كثافَة الظلـمات المتراكمة، وتعقيداً للعلاقات الإنسانية العاقلة وغير العاقلة، ولو لـم يكن تعقيداً وتقييداً لـما كان المرتكِسون في الظلـمات منذ الخَلْق الأول هم المعنيون به، والراعون لـمسيرته والداعون إليه..

إن الأخلاق الإسلامية الحَقة تصنع إنساناً يفهم المعاني السامية في المنهج العالـمي الشمولي النير، ويمارسها في تبديد ظُلـمة الحياة وظُلـمة الذات، وتبـنـي عقلاً يستـمد تحليلَه للواقع، وكينونته من ذَات المنهجية الأخلاقية العالـمية، ويعرِف مِن هذه المنهجية التي لاَ تقبل النقْض ولاَ

المداخلة ولاَ تعدِيل القَرار مِن أين تجيءُ الظلـمة؟ ومن هم روادها؟!..
أعداءُ النور...

عن أبي هريرة رضي اللّه تعالى عنه أنه قَال: « بينما النبي صلى اللّه عليهِ وآلِهِ وسلـم يحدثُ القَوم جاءَه أعرابي فَقَال: متى الساعة ؟ فَمضى رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلـم يحدثُ، فَقَال بعض القَومِ: سمِع ما قَال فَكَرِه ما قَال، وقَال بعضهم: بل لـم يسمع، حتى إذَا قَضى حديثَه قَال: أين السائل عن الساعة..؟ قَال: هاَ أنا يارسولَ اللّه، قَال: إذَا ضيعت الأمانة فَانتظِر الساعة، قَال: وكيف إضاعتها؟ قَال: إذَا وسد الأمر إلى غَير أهلِهِ فَانتظِر الساعة..» رواه البخاري.

إشراقات نبوية
عن شرف الأخلاق

- قَالَ صلى اللّه علَيهِ وآلِهِ وسلـم: ((إن مِما أدرك الناس مِن كَلاَمِ النبوةِ الأُولَى: إذَا لـم تستحِ فَاصنع ما شِئْت))[1].
- وقَالَ صلى اللّه علَيهِ وآلِهِ وسلـم: ((ليس الشدِيد بالصرعة، إنما الشدِيد الّذي يملِك نفْسه عِند الغضب)) . وقَالَ صلى اللّه علَيهِ وآلِهِ وسلـم: ((إن الفُحش والتفَحش لَيسا مِن الإسلاَمِ في شيءٍ، وإن أحسن الناس إسلاَماً أحسنهم أخلاَقاً))[2] .
- وقَالَ صلى اللّه علَيهِ وآلِهِ وسلـم: ((إن أحبكُم إلي أحاسِنكُم أخلاَقاً المُوطؤونَ أكْـنافاً، الّذِين يأْلفونَ ويؤلفون، وإن أبغضكُم المشاؤون بالنمِيمة، المفَرقُونَ بين الأَحِبةِ، المتلـمسونَ للبرآءِ العيب))[3] .
- وقَال صلى اللّه علَيهِ وآلِهِ وسلـم: ((أنا زعِيم بِبيتٍ في ربضِ الجنة لمن ترك المراءَ ولَو كَانَ محِقاً، وبِبيتٍ في وسطِ الجَنةِ لمن ترك الكَذِب وإنْ كَانَ مازِحاً، وبِبيتٍ في أعلَى الجَنةِ لـمن حسن خلُقه))[4].

---

(١) رواه ابن مسعود في ((الأدب المفْرد)) .

(٢) رواه أحمد بإسناد صحيح ، ((الـمتجر الرابح)) ص ٥٤٩ أبواب الأدب والزهد.

(٣) أخرجه الطبراني، المصدر السابق ص ٥٥١ .

(٤) رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي، المصدر السابق ص ٥٥٣ .

- قَالَ صلى اللّه علَيهِ وآَلِهِ وسلـم: « أوحى اللّه إلى إبراهِيم عليهِ السلاَم: يا خلِيلي حسن خلُقَك ولَو مع الكُفارِ تدخل مدخل الأبرار، وإن كلـمتي سبقَت لـمن حسن خلُقه أنْ أظِله تحت عرشِي، وأن أسقِيه مِن حظِيرةِ قُدسِي، وأنْ أُدنِيه مِن جِوارِي » [(١)] .
- قَالَ صلى اللّه علَيهِ وآَلِهِ وسلـم: « اضمنوا لِي سِتاً مِن أنفُسِكُم أضمن لَكُم الجَنة: اُصدِقُوا إذا حدثتـم، وأوفُوا إذا وعدتـم، وأدوا إذا اؤتـمنتـم، واحفَظُوا فُروجكُم، وغُضوا أبصاركُم، وكُفوا أيدِيكُم» [(٢)].
- قَالَ صلى اللّه علَيهِ وآَلِهِ وسلـم: « ارحموا ترحموا، واغْفِروا يغفَر لَكُم، ويلٌ لأقْماعِ القَول، ويلٌ للـمصِرين الذين يصِرونَ علَى ما فَعلُوا وهم يعلـمون.. » [(٣)] .

(١) أخرجه الطبراني ، المصدر السابق ص ٥٥٣.

(٢) رواه أحمد وابن حبان والحاكم، المصدر السابق ص ٥٥٨ .

(٣) رواه أحمد بإسناد رجاله ثقات، المصدر السابق ص٥٧١ ، والأقماع: الذين يمر القولُ على آذا م ولا يستقر في قلو م.

- قَالَ صلى اللّه علَيِهِ وآَلِهِ وسلـم: « من نفس عن مسلـم كُربةً مِن كُربٍ الدنيا نفس اللّه عنه كُربةً مِن كُربٍ يومِ القِيامة، ومن يسر علَى مسلـم في الدنيا يسر اللّه عِلِيِهِ في الدنيا والآخِرة، ومن ستر علَى مسلـم في الدنيا ستر اللّه علَيِهِ في الدنيا والآخِرةِ، واللّه في عونِ العبدِ ما كَانَ العبد في عونِ أَخِيِهِ » رواه مسلـم.
- قَالَ صلى اللّه علَيِهِ وآَلِه وسلـم: « ما مِن امرِئٍ مسلـم يخذُلُ امرءً مسلـماً في موضِعٍ تنتهك ِفيِهِ حرمته وينتقَص ِفيِهِ مِن عِرضِهِ إلا خذَلَه اللّه في موضعٍ يحِب ِفيِهِ نصرته، وما مِن امرِئٍ مسلـم ينصر مسلـماً في موضِعٍ ينتقَص ِفيِهِ مِن عِرضِهِ وينتهك ِفيِهِ مِن حرمتِهِ إلا نصره اللّه في موطِنٍ يحِب ِفيِهِ نصرته» رواه أبو داود .

الفهرس